أضواء على العلاقات المصرية السورية القديمة

شواهد أثرية على العلاقات بين إيبلا ومصر خلال الامبراطورية القديمة والوسطى

للدكتورة غابرييلا ماتييه

تعريب وتلخيص : قاسم طوير

تقوم بعثة جامعة روما الأثرية بالتنقيب الأثري في موقع تل مرديخ ايبلا منذ ١٩٦٤ لكن ثمرات مواسم ١٩٧٧ ، ١٩٧٩ ساهمت الى حد كبير في اغناء معارفنا عن العلاقة القائمة بين سوريه ومصر خلال الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد أي الفترة المتعلقه بالامبراطوريه القديمه والامبراطوريه الوسطى في مصر .

لقد عثرت البعثة خلال موسم ١٩٧٧ في أرضية القصر الملكي الذي يرقى الى الألف الثالث ق.م (عصر البرونز القديم الرابع) على بقايا أواني من مادتي حجر الالباترو حجر الديوريت كانت مختلطة في الرماد والأنقاض المتفحمة التي خلفها الحريق والدمار الناتج عن غزو الملك الاكادي نارام سن لايبلا في حوالي /٢٢٥٠/ ق.م . ورغم الحالة المشوهة التي سببها الحريق لتلك البقايا فقد استطاعت البعثه المذكوره التأكد من وجود إشارات هيروغليفيه منقوشه على ثلاثة كسر من بقايا الأواني المذكوره . تحمل احدى الكسر اسم ولقب ملك مصري من الاسره الرابعه والأخرى اسم ولقب ملك من الاسره السادسه ، وتشير بقايا آنية الديوريت انها كانت جزءاً من مثعب سراج للنور .

تتألف الكتابه المنقوشه على الوجه العلوي للكسرة الأولى من الكلمات التاليه : حوروس الذهبي القوي بصفته حورس الذهبي ، خفرع أو (هـ ، ر ، ن ، ب ، و ، س ، خ ، م ، ن ، ب ، و ، خ ، ف ، ر ، ع) حسب الاشارات الهيروغليفيه . اما الكتابه المنقوشه على الوجه العلوي للكسرة الثانيه فانها تتألف من الكلمات (ن ب ت ي — و س ر — م — ن ب ت و — خ ف ر ع) أي (السيدتان ، القوى بصفته السيدتين ، خفرع) اذن تتعلق الكتابتان بشخص الملك خفرع وهو باني الهرم الثاني المشهور باسمه وأحد أفراد الاسرة الرابعة. إنه في غاية الأهمية ان نعثر على وثيقة باسم خفرع سيماوان الأثر الكتابي الوحيد باسم هذا الملك الشهير خارج مصر قد تم العثور عليه منقوشاً على ختم اسطواني في جبيل على الساحل اللبناني وذلك على الشكل التالي (خ ف ر ع — م ر ت — خ ت — خ ت — خ ر — م ر — ن ت ر و) اى خفرع حبيب حاتور الآلهه) .

وبناء على ذلك فان وثيقة ايبلا شاهد ثمين ونادر على الوجود المصري وتوسعه في الشرق الأدنى خلال حكم الاسره الرابعه في مصر ، سيما وان ايبلا هي ابعد نقطه وصل الوجود المصري اليها شرقاً حتى الان وهنا يتبادر السؤال الى الاذهان عن الطريق الذي سلكته تلك الشواهد الأثرية حتى وصلت الى ايبلا الواقعه في سوريا الداخليه وفي اي عصر جرى ذلك .

فالشق الأول من السؤال يمكن الاجابه عليه بافتراض وجود اتصالات مباشرة بين القطرين عبر ميناء جبيل على الساحل اللبناني . لكن الاجابه على الشق الثاني يحفل بالمصاعب فخلال حكم الاسرة الرابعة في مصر لم تكن ايبلا قد اصبحت مركزا هاما يمكنها من اقامة علاقات مع مدينة نائيه مثل جبيل لذلك من المحتمل ان تكون الأواني موضوع الاكتشاف قد وصلت الى جبيل في عصر لاحق لفترة صناعتها في مصر أو ان تكون جبيل قداحتفظت بها طويلا بسبب قيمتها الفنية الثمينة .

عثرت البعثة في القصر الملكي نفسه على قطعة مصرية ثالثة وهي عبارة عن غطاء آنية على هيئة قرص من حجر الألباتر . ولا بد أنها كانت غطاء لآنيه مصريه معروفه الشكل (عاليه ، اسطوانيه) وتستعمل عادة لحفظ الزيوت أو العطور . يزين القطعه المذكورة نقوش هيروغليفية باسم ولقب الملك ببي الأول . وهو الملك الثالث في الاسره السادسه ، اما النقوش فانها تتألف من الكلمات التالية (م ر — ى — ت ا و ى — ن س و ت — ب ى ل ى — س ا — خ ت — خ ت — ن ب ت — ى و ن ى ت — ب ب (ى)) وهي تعني حبيب رب الارضين ، ملك مصر العليا والسفلى ابن حاتور ، سيده (دندندره — ببي) .

لقد سبق للمنقبين في جبيل ان عثرو على عدد من القطع التي تحمل اسم ببي الأول وألقابه . بيد ان الكتابة المنقوشة على قطعة ايبلا موضوع البحث كانت تجمع كافة القاب ببي الأول مرة واحدة فالقسم الأول من اللقب (حبيب الارضين) كان يستعمله الملك نفسه طيلة مدة حكمه ، بينما خص اللقب الثاني (ابن حاتور سيدة دندره) بالقطع الفنيه المراد ارسالها أو اهدائها للخارج لان اللقب يشير الى ان سيدة دندره هي ربة البلدان النائيه وبالذات جبيل اما اللقب الثالث (ملك مصر العليا والسفلى) فانه يدلل الى ان عملية النقش قد تمت اثناء المرحله الأولى من حكم ببي الأول وهنا نستعين ايضاً بالفرضية التي طرحناها آنفا بأن الطريق الذي سلكته هذة القطعة قد مرت بجبيل قبل وصولها الى ايبلا .

لايقتصر اسهام مكتشفات ايبلا في تسليط الاضواء على العلاقات المصريه السوريه خلال الاسرتين الرابعة والسادسة فالاكتشافات توالت في السنوات اللاحقة لتشمل شواهد أثرية وكتابية على روابط متينة وهامة جدا بين ملوك مصر وملوك ايبلا خلال الاسره الثالثه عشر (الامبراطوريه الوسطى) لقد استأنفت البعثة المذكورة في ١٩٧٨ و ١٩٧٩ اعمال التنقيب في منطقة القصر الملكي الذي يعود الى الالف الثاني قبل الميلاد بغية الوصول

الى الطبقات الاثرية الاقدم وبالذات الوصول الى طبقات الالف الثالث لكن التنقيب قاد الى الكشف عن مقابر محفوره في الصخر وكانت تلك المدافن غنية بالعطايا الجنائزية الثمينه للغايه من الناحيتين الفنيه والماديه (حلي ذهبيه وقطع عاجيه) ومن ابرز القطع التي تم التقاطها اجزاء شبه متكامله لصولجان ملكي مصنوع من العاج والذهب ويحمل نقوش هيروغليفية تتضمن اسم ملك مصري . بيد ان يد الترميم قد وصلت الى هذا الصولجان حيث يبدو ان النقوش الهيروغليفيه قد تساقطت ذات يوم ثم اعيد تركيبها بيد غير مصريه لان الاشارات الهيروغليفيه لم تعد الى مكانها الاصلي كما ان احدى الاشارات قد ضاعت ولم يبق منها الا الثقب الذي كان يمسك بها . ومع هذا فقد كان بالامكان قراءة مايلي :

(ح ت ب ــ ع ب ع) اى حتب إب ر ع وهو اسم علم مذكر يعني (قلب رع راض) ولما كان شكل الانسان المركب برأس حيوان واقف على جانبي هذه الكتابه فان الاعتقاد يسود بان الاسم ملكي بالرغم من اختفاء الاطار الذي يحيط بالاسماء الملكية عادة . اذا اخذنا بعين الاعتبار ان البقايا الجنائزيه في المدافن ترقى الى العصر البرونزي الوسيط المحصور بين ١٨٠٠ ــ ١٦٥٠ ق) لنهاية الامبراطورية الوسطى والفترة الانتقالية الثانية في مصر ، لذلك فان الاسم المنقوش على صولجان ايبلا لابد ان يكون ــ اب ــ رع وهو أحد ملوك الاسرة الثالثة عشر وحكم بين ١٧٧٥و١٧٦٥ ق.م إننا نعرف هذا الملك من خلال الشواهد الأثريه والكتابيه التاليه : كتابه منقوشة على حجر كلسي تم العثور عليها في أواخر القرن الماضي على الشاطىء الايمن لنهر النيل قرب أسيوط . بيد ان وجود هذه الشاهدة الحجريه قرب اسيوط قد قاد العلماء الى الاعتقاد بان شخص حتب اب ــ رع ليس الا ملكا على بقعة صغيرة في مصر الوسطى . لكن هذا الرأي تغير بعد ان تم مؤخرا اكتشاف جزء من تمثال لشخص جالس في تل الضبعة في الدلتا الشرقيه ويحمل هذا التمثال كتابه هيروغليفيه تتضمن اسم حتب اب ــ رع وتصفه بانه حبيب بتاح . ومامن شك ان المقصود هو معبد بتاح في ممفيس العاصمة القديمة لمصر واذا كان التمثال منذورا لمعبد بتاح الكبير في ممفيس فلا بد ان صاحبه كان ملك ممفيس خاصة وملك مصر عامة . بيد ان النص الكتابي نفسه يتضمن ألقابا هامه أخرى للملك نفسه مثل (ابن الاسيويين أو » ابن عمال الارض » ان كلا اللقبين يدلان على الاصل غير الملكي لحتب اب ــ رع . فاذا كانت القراءة صحيحة لكلمة (ابن الاسيويين) فاننا نواجه لاول مرة ذكر اسم ملك مصري من اصل آسيوي خلال الاسرة الثالثة عشر في مصر وثمة دلائل أثرية أخرى ترجح مثل هذا الاحتمال ، نذكر منها الختم المصري المكتشف في حفريات اريحا (جيريشو القديمه) والذي يحمل اسم حتب ــ اب ــ رع .

بناء على ذلك فان حتب ــ اب ــ رع لم يكن ملكا ثانويا في مصر بل كان من القوة والنفوذ بحيث وصل الى فلسطين (جيريشو) وصولجانه الى سوريه (ايبلا) . في ضوء هذه الحقائق لابد لنا من الامعان في التفكير في أهمية الاسرة الثالثة عشر والتي ينتمي اليها الملك حتب إب ــ رع نفسه فمصر خلال

فترة هذه الاسرة لم تعد في مستوى القوة العظمى التي كانت فيها الاسرة الثانيه عشر والاثر الذي تركته في البلدان الاسيوية (اى فلسطين ولبنان— وسوريه) لكن يبدو أن الاسرة الثالثة عشر لم تفقد الاتصال كليا مع بلدان شرقي البحر المتوسط . ففي الفتره التي سبقت حكم الهكسوس في مصر استطاع ملوك مصر ارسال الهدايا والقطع الفنيه المشفوعة باسمائهم الى فلسطين ولبنان وسوريه بحيث ان الشواهد الأثريه على ذلك لاتقتصر على القطعتين آنفتي الذكر في جيريشو وايبلا باسم حتب اب — رع . لقد عثر المنقبون على نحت بارز للملك نفرحوتب الأول في جبيل وعلى ختم باسمه في تل العجول بالاردن وعلى تمثال صغيرلامن — حوتب الرابع في تل حزين قرب بعلبك وعلى ختم باسم وهب — رع (الملك السابع والعشرين في الاسره الثالثه عشر نفسها) في جبيل ايضاً . يضاف الى ذلك ختم آخر باسم ديدموس (الملك الثلاثين) تم العثور عليه في ايبلا خلال تنقيبات عام ١٩٦٩ .

لابد ان يرقى تاريخ هذا الختم الى المرحله الاخيرة من عصر البرونز الوسيط الثاني . اى قبل دمار ايبلا الاخير . بما ان المدافن واقعة تحت القصر الملكي كما ان نوعية البقايا الجنائزية عالية وثمينه للغاية فلا بد ان يكون اصحابها من افراد العائلة المالكة وكذلك لابد ان يكون ملك ايبلا قد دفن معه الصولجان الذي وصله هدية من الملك المصري حتب — اب — رع . لكن ماهي نوعية العلاقة التي كانت تربط ملك مصر بملك ايبلا انذاك . لقد سبق ان اشرنا ان أحد القاب حتب اى — رع هو « ابن الاسيويين » اى لعله حفيد احدى القبائل الاسيويه (السوريه الفلسطينيه) التي استقرت في شرقي الدلتا خلال حكم الهكسوس واستطاع أحد افرادها وهو حتب اب — رع ان يصل الى سدة العرش في مصر . كذلك من المحتمل ان يكون حتب اى — رع على علم بتسلسل اجداده القادمين اصلا من سوريه وبالذات من ايبلا مما دفعه ، كما نفترض ، الى ارسال صولجانه هدية الى ملك ايبلا .